

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القرآن أنزل عربيا فيجب أن يتلى في
الصلوات وغيرها بلغته التي نزل بها

سَمَاةُ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ

أحمد بن محمد بن عبد الله الخليلي

المفتي العام لسلطنة عُمان



الكتاب الوطني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بَلَدِ شَارِكِ عَمْرِو بْنِ



جميع الحقوق محفوظة



الجمهورية العربية السورية

مسقط - سلطنة عُمان



الطبعة الأولى

١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٥ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القرآن أنزل عربيا فيجب أن يتلى في
الصلوات وغيرها بلغته التي نزل بها



سَمَاحَةُ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ
أَلْهَدْيُ بْنُ حَمْدٍ الْخَلِيلِي
الْمُفْتِيَّ الْعَامِلَ لِسُلْطَنَةِ عُومَانِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل كتابه بلسان عربي مبين، فبزه فصحاء العرب والعجم، وتحداهم بمباراته فتقاعست دون ذلك الهمم، واعترف الكل بأنه كتاب محكم بيانه، مشرق برهانه، معجز تبيانه، وأشهد أن لا إله إلا الله ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، وجعله إلى كل هداية منهجا، وإلى كل خير موجا.

وأشهد أن محمد عبده ورسوله النبي الأمي؛ الذي هدى الأمم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، فعلمها من الجهالة، وأنقذها من الضلالة، وبصرها من العمى، وخلصها من الردى، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الله تعالى أنزل القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ بعدما عاش بين قومه فترة من الزمن، كان فيها منطويا على نفسه، غير طموح إلى أمر يتميز به من بينهم، ولم يكن يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينه، فكان إنزال الكتاب عليه حدثا عظيما غير مجرى حياته؛ بل مجرى حياة البشر، وقد اختص الله تعالى اللغة العربية لأن تكون

وعاء لهذا الكلام المنزل للتحدي والاعجاز، لأن العرب أول من ووجه به، وهذا ما نص عليه القرآن في آيات شتى، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [الرعد: ٣٧]، وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكَّرُونَ ﴾ [٢٧] ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧ - ٢٨]، وقوله: ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢] ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [فصلت: ٣ - ٤]، وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى: ٧]، وقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣]، وقوله: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الأحقاف: ١٢].

وكان هذا بعدما هيا الله العربية لأن تكون وعاء لهذا الكتاب العظيم، فقد أخرجها من طور إلى آخر بما كان عليه العرب من ترويض ألسنتهم وتعويدهم على الكلام الراقي، فكم تباروا في أسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز؛ التي كانوا يلتقون فيها ويتبارون في الخطاب نشره وقريضه تهية لأن تتسع هذه اللغة لهذا الكتاب المبين؛ الذي حير فيه العرب أنفسهم حتى يدركوا

أنه ليس في مقدورهم أن يأتوا بمثله، وكم تحداهم بذلك كما في قوله: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤]، وقوله: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣]، وقوله: ﴿ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣]، وأخبر أنه لو تظاهروا جميعا على أن يأتوا بمثله لخارت بذلك قواهم، ولو استظهروا عليه بجميع الثقلين، كما في قوله: ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

-آية القرآن في إعجازه بدأ ظهورها بتحدي العرب:

كم استنفر نخوات العرب واستثار عزائمهم إذ أنكر ما كانوا عليه هم وغيرهم من الأمم من اتخاذ الآلهة من دون الله تعالى، فصاح في الناس جميعا صيحة مبصرا لهم بخطورة ما كانوا عليه من الشرك واتخاذ الأنداد لله تعالى، وداعيا لهم إلى خلع ما كانوا عليه من الوثنية الزائغة والبدع الضالة، مقيما عليهم الحجج من أنفسهم ومن المنظومة الكونية بأسرها أن الله إله واحد، وامتن عليهم بذلك في آيات شتى كقوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ لَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣].

وقد كُبر ذلك على المشركين، سواء من قومه أو من غيره، إذ لم يعهدوا مثله في أنفسهم ولا في غيرهم، وكانت دعوته لهم جميعاً إلى إفراد الله تعالى بالعبادة دون ما يدعون من دونه، وإلى توحيد الدين الذي يتعبدون به، وبصرهم بأنه دين النبيين وجميع الأمم المهتدية بهم إلى الحق، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، وبين لهم أن التفرق والاختلاف إنما كان بعدما أقام الله عليهم حجته برسالاته، ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤]، وحكى كيف أزعج ذلك قومه فتنادوا بضرورة الاستمساك بما وجدوا عليه آباءهم، ﴿وَعِجْبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذٰبٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلُ الْاِلٰهَةَ اِلٰهًا وَحِدًا اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴿٥﴾

وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾
مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْأَخِيرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أُخْلَقُ ﴿٧﴾ [ص: ٤ - ٧].

-أتاهم القرآن الكريم بما لم يكونوا يتصورونه من الإيمان باليوم الآخر:

كم أُنذَرهم القرآن بأن هذه الحياة كما ستنتهي إلى أمد هم
بالغوه؛ ستعقبها حياة الأبد يجزون فيه على ما قدموا في حياتهم
هذه من خير أو شر، وجادلوا في ذلك أيما مجادلة وقد حكى ذلك
عنهم وأفحمهم بإقامة الحجة عليهم من أنفسهم ووجودهم في
هذه الحياة كما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ
فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي
الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ
خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ
مِنْهُ تُوقَدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ
يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ
يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ
وَالِيهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ [يس: ٧٧ - ٨٣]، ومثله قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ
۝٤ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝﴾ [ق: ٣ - ٥]،

ثم أقام عليهم الحجة بخلق هذا الكون بأسره، إذ قال:

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْفَهُمْ كَيْفَ بَيْنَهَا وَزَيْنَهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۖ ﴾ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بَهِيجٍ ۖ (٧) تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿

[ق: ٦ - ١١].

-كان العرب أول من تحداه القرآن-

بدأ هذا الجدل والسجال بين النبي ﷺ الذي أنزل عليه القرآن وبين قومه العرب، إذ كانوا أول من كذبه وخاصمه، وقد خصمهم بتحديهم بالقرآن؛ كتاب الله المعجز، مع أنه نزل بلسانهم الذي خبروه وتفننوا بالتعبير به، ولكنه أتاهاهم بما حير ألباهم، إذ ما كانوا يشكون في أنه أتاهاهم بأمر لا قبل لهم به، كما يصور ذلك إمام الأدب الكبير الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في قوله: «نزل منهم منزلة الفطرة الغالبة التي تستبد بالتكوين العقلي في كل أمة، فتجعل الأمة كأنها تحمل من هذا العقل مفتاح الباب الذي تلج منه إلى مستقبلها؛ فإن كل أمة تستفيد عقلها الحاضر من ماضيها، لتفيد مستقبلها من هذا العقل بعينه، فلما استقاموا

له أقامهم على طريق التاريخ التي مرت فيها الأمم، وطرحت عليها نقائصها فكانت غبارها، وأقامت فضائلها فكانت آثارها؛ فجعلوا يبنون عند كل مرحلة على أنقاض دولة دولة، ويرفعون على أطلال كل مذلة صولة، ويخطون جوانب العالم الممزق بإبر من الأسنة، وراءها خيوط من الأعنة؛ حتى أصبح تاريخ الأرض عربيا، وصار بعد الذلة والمسكنة ألبيا، واستوسق لهم من الأمر ما لم ترو الأيام مثل خبره لغير هؤلاء العرب، حتى كأنها زويت لهم جوانب الأرض، وكأنها كانوا حاسيين يمسحونها؛ لا غزاة يفتحونها؛ فلا يتدئ السيف حساب جهة من جهاتها حتى تراه قد بلغ بالتحقيق آخره، ولا يكاد يشير إلى قطر من أقطارها إلا أراك كيف تدور عليه الدائرة»^(١).

وكم حير الألباب ببيانه المدهش حتى أولئك الذين لم يكونوا عربا، وإنما كانوا من شعوب أخرى رقت معارج الحضارات وخبرت الفلسفات وأتوا بكل ما هو غريب، ولكنهم عندما ووجهوا بالقرآن أدركوا هذه الروح التي تسري فيه والتي خلا منها كل كلام، فكم تحدث المستشرقون عن هذا السر الغيبي الذي وجدوه في هذا الكلام الإلهي كما في قول كثير من

(١) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٦١، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٨: ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م.

المستشرقين الذين درسوا القرآن، والأعجب من ذلك أن يكون هذا ممن لم يكن خبيراً باللغة العربية ولم يسمع من قبل متحدثاً بها فضلاً أن يكون سمع تالياً للقرآن، ولكنه لا يلبث أن يدرك الفرق بين الكلام العربي وبين القرآن الكريم، كما في هذه القصة التي حدثنا بها الأستاذ سيد قطب ولندع لقلمه في ذلك المجال:

«كنا ستة نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك؛ من بين عشرين ومائة راكب وراكبة أجنب ليس فيهم مسلم، وخطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة! والله يعلم أنه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر مما كان بنا حماسة دينية إزاء مبشر كان يزاوّل عمله على ظهر السفينة؛ وحاول أن يزاوّل تبشيريه معنا! وقد يسر لنا قائد السفينة - وكان إنجليزياً - أن نقيم صلاتنا؛ وسمح لبحارة السفينة وطهاثها وخدمها - وكلهم نوبيون مسلمون - أن يصلي منهم معنا من لا يكون في (الخدمة) وقت الصلاة! وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً، إذ كانت المرة الأولى التي تقام فيها صلاة الجمعة على ظهر السفينة. وقمت بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة؛ والركاب الأجنب - معظمهم - متعلقون يرقبون صلاتنا! وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهتفوننا على نجاح (القدّاس)!!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا!

ولكن سيدة من هذا الحشد - عرفنا فيما بعد أنها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم (تيتو) وشيوعيته! كانت شديدة التأثير والانفعال، تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها، جاءت تشد على أيدينا بحرارة؛ وتقول: - في إنجليزية ضعيفة - إنها لا تملك نفسها من التأثير العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح! وليس هذا موضع الشاهد في القصة، ولكن ذلك كان في قولها: أي لغة هذه التي كان يتحدث بها (قسيسكم)! فالمسكينة لا تتصور أن يقيم (الصلاة) إلا قسيس - أو رجل دين - كما هو الحال عندها في مسيحية الكنيسة! وقد صححنا لها هذا الفهم! وأجبناها، فقالت: إن اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقي عجيب، وإن كنت لم أفهم منها حرفاً. ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول: ولكن هذا ليس الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه. إن الموضوع الذي لفت حسي، هو أن (الإمام) كانت ترد في أثناء كلامه - بهذه اللغة الموسيقية - فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه! نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعاً. هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث في رعدة وقشعريرة! إنها شيء آخر! كما لو كان - الإمام - مملوءاً من الروح القدس! - حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها! - وتفكرنا قليلاً، ثم أدركنا أنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي أثناء

الصلاة! وكانت - مع ذلك - مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة، من سيدة لا تفهم مما نقول شيئاً!

وليست هذه قاعدة كما قلت، ولكن وقوع هذه الحادثة - ووقوع أمثالها مما ذكره لي غير واحد - ذو دلالة على أن في هذا القرآن سرّاً آخر تلتقطه بعض القلوب لمجرد تلاوته^(١). اهـ

ويا ترى هل كان اندفاع الشعوب العجمية - التي لم تكن تفقه من العربية شيئاً إلى اعتناق دين الله تعالى على أيدي دعاة لم يكونوا على دراية باللغات العجمية التي تفقهها تلك الشعوب - إلا أثراً لما يسمعون من أفواههم من صوت القرآن الذي يتلونونه؟ وهذه حقيقة يشهد بها التاريخ، على أن ذلك لم يكن ناتجاً عما لأولئك الدعاة من قوة وسلطان نافذين فيمن يدعونهم، فكثيراً ما يكون الواقع هو العكس، كما كان من المغول الذين تمكنوا من السيطرة على العديد من بلاد الإسلام فنفذت فيها سياستهم، ولكن الشعوب المسلمة المقهورة بدلاً من أن تتأثر بالغازين القاهرين - كما هي العادة المألوفة - كان لهم التأثير على الغزاة، فاعتنقوا على أيديهم الإسلام.

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ٣/ ١٧٨٦، دار الشروق - بيروت، ط ١٧: ١٤١٢هـ.

وقد سجل غير واحد من غير المسلمين شهادة لما لهذا القرآن وتلاوته من أثر على سامعيه، كما حكى صاحب الوحي المحمدي أن أحد فلاسفة فرنسا قال في أحد كتبه: «إن محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً أواهاً متألهاً فتفعل قراءته في جذب الناس إلى الإيمان ما لم تفعله جميع آيات الأنبياء الأولين»^(١).

هذا فضلاً عن شهادة كثير من غير المسلمين عندما اطلعوا على القرآن الكريم أنه كتاب معجز شكلاً ومضموناً تعجز جميع ملكات البشر عن الإتيان بمثله، وهذا الذي جعل الملحد العنيد شبلي شميل -الذي انتقل إلى الإلحاد من الكاثوليكية المعروفة بعوائدها للإسلام- يعترف بتأثير هذا القرآن الكريم على نفسه، وأنه أعظم آية دالة على مقام النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، وبه حير الألباب، وأدهش الأفكار، وحول الناس عما كانوا عليه إلى ما انتقلوا إليه كما في قوله:

دع من محمد في سدى قرآنه

ما قد نحاه للحممة الغايات

إني وإن أك قد كفرت بدينه

هل أكفرنّ بمحكم الآيات

(١) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي ص ١١٣، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١: ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

أو ما حوت في ناصع الألفاظ من
 حكم روادع للهوى وعظات
 وشرائع لو أنهم عقلوا بها
 ما قيدوا العمران بالعادات
 نعم المدبّر والحكيم وإنّه
 ربّ الفصاحة مصطفى الكلمات
 رجل الحجى رجل السياسة والدها
 بطل حليف النصر في الغارات
 ببلاغة القرآن قد غلب النهى
 وبسيفه أنحى على الهامات
 من دونه الأبطال في كل الورى
 من سابق أو حاضر أو آت^(١)

(١) محمد رشيد رضا: مجلة المنار، (العدد الصادر يوم الثلاثاء غرة محرم/ ١٣٢٦ هـ والموافق ٣/ مارس/ ١٩٠٨ م)، (مج ١١/ ١٠-١١)، وأيضاً؛ (العدد الصادر بتاريخ ٢٩/ جمادى الآخرة/ ١٣٣٥ هـ، والموافق ١٨/ أبريل/ ١٩١٧ م)، (مج ١٩/ ١٩-٢٢٧-٢٢٨)، وينظر كذلك؛ الوحي المحمدي، ص ٩٦.

-تعذر بقاء روح القرآن في ترجماته إلى غير لغته:

أدرك العلماء أن ترجمة القرآن إلى أي لغة غير لغته تفقده مزاياه وتذهب عنه روعته كما في قول صاحب الوحي المحمدي: «إنّ ترجمات القرآن التي يعتمد عليها علماء الإفرنج في فهم القرآن كلها قاصرة على أداء معانيه التي تؤديها عباراته العليا وأسلوبه المعجز للبشر، وهى إنما تؤدى بعض ما يفهمه المترجم له منهم إن كان يريد بيان ما يفهمه، وإنه لمن الثابت عندنا أن بعضهم تعمّدوا تحريف كلمه عن مواضعه، على أنه قلما يكون فهمهم تاما صحيحا، ويكثر هذا فيمن لم يكن به مؤمنا، بل يجتمع لكل منهم القصوران كلاهما: قصور فهمه، وقصور لغته، وقد اعترف لي ولغيري بهذا مستر (محمد) مارماديوك بكتل الذى ترجمه بالإنكليزية وجاء مصر منذ ثلاث سنوات فعرض على بعض علماء العربية المتقدمين للغة الإنكليزية ما رأى أنه عجز عن أداء معناه منه، وصحح بمساعدتهم ماذا كرههم فيه .

واعترف بذلك قبله الدكتور (ماردريس) المستشرق الفرنسي الذى كلفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسيتان لدولته ترجمة ٦٢ سورة من السور الطوال والمئين والمفصل التي لا تكرر فيها ففعل، فقد قال في مقدمة ترجمته التي صدرت سنة ١٩٢٦ ما

معناه بالعربية:

(أمّا أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق جلّ وعلا، فإنّ الأسلوب الذي ينطوي على كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهيا، والحق الواقع أن أكثر الكتّاب ارتيابا وشكّا قد خضعوا لسلطان تأثيره (في الأصل - لتأثير سحره - يعنى تأثيره الذي يشبه السحر في كونه لا يعرف له سبب عادي)، وأن سلطانه على ثلاث مائة مليون من المسلمين المنتشرين على سطح المعمورة لبالغ الحد الذي جعل أجنب (المبشرين) يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن.

ذلك أن هذا الأسلوب الذي طرق في أول عهده آذان البدو كان نثرا جد طريف، يفيض جزالة في اتساق نسق، متجانسا مسجعا، لفعله أثرا عميقا في نفس كلّ سامع يفقه العربية. لذلك كان من الجهد الضائع غير المثمر أن يحاول الإنسان أداء تأثير هذا النثر البديع الذي لم يسمع بمثله بلغة أخرى، وخاصة اللغة الفرنسية الضيقة التي لا سعة فيها للتعبير عن الشعور، المرثة التي لا تتنازل عن حقوقها، والقاسية. وزد على ذلك أن اللغة الفرنسية ومثلها جميع اللغات العصرية ليست لغة دينية، وما

استعملت قط للتعبير عن الألوهية) اهـ^(١).

ثم أتبع ذلك بيان أسلوب القرآن الفذ في قوله: «إن أسلوب القرآن الغريب المخالف لجميع أساليب الكلام العربي وغيره، وطريقته في مزج العقائد والمواظ والحكم والأحكام والآداب بعضها ببعض في الآيات المتفرقة في الصور - وهو ما يبيّن سببه وحكمته في هذا الكتاب - وقد كان حائلاً دون جمع كبار علماء المسلمين من المفسرين وغيرهم لكل نوع من أنواع علومه ومقاصده في باب خاص به. كما فعلوا به في آيات الأحكام العملية من العبادات والمعاملات. دون القواعد والأصول الاجتماعية والسياسية والمالية التي يرى القارئ نموذجها في هذا الكتاب. إذ لم يكونوا يشعرون بالحاجة إليها كما نشعر في هذا العصر.

وقد عنى بعض الإفرنج بوضع كتاب باللغة الفرنسية جمع فيه آيات القرآن بحسب معانيها، ووضع كلا منها في باب أو أبواب خاصة بقدر فهمه، ولكنه أخطأ في كثير من هذه المعاني وقصر في بعض مما علمه، وما جهله منها عظيم، ذلك بأن أخذ القواعد والأصول العامة من هذه الآيات يتوقف على العلم

(١) رشيد رضا: الوحي المحمدي، ص ١١-١٢.

بسيرة النبي ﷺ وسنته في بيان القرآن وتنفيذه لشرعه، وآثار خلفائه وعلماء أصحابه من بعده، كما يعلم من يراجع في ذلك الكتاب الآيات الدالة على ما بيناه في كتابنا هذا من مقاصد القرآن بالاختصار، وما فصلناه منها في تفسير المنار»^(١). اهـ

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]: «(إنا أنزلناه) أي الكتاب على رسولنا النبي العربي حال كونه قرآنا عربيا أي بين لكم بلغتكم العربية ما لم تكونوا تعلمون من الدين وأنباء الرسل والعلم والحكمة والأدب والسياسة لعلكم تعقلون معانيه أيها العرب، وما ترشد إليه من مطالب الروح ومدارك العقل، وتزكية النفس، وتثقيف مدارك الوجدان والحس، وإصلاح الاجتماع العام، المراد بها صلاح الحال، وسعادة المآل»^(٢).

وبين في المنار خطورة ترجمة القرآن إلى لغات أخرى، وأن أولئك يفوتون على أنفسهم وعلى كل من تأثر بهم روح القرآن الكريم التي تتجلى بالمعبارة الخاصة، وتجتذب القلوب إليها

(١) المرجع السابق، ص ١٢.

(٢) رشيد رضا: المنار، ١٢/ ٢٠٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة، ط: ١٩٩٠ م.

اجتذابا ليس له نظير، وإليك ما قاله في هذا: «ثم حدثت في الإسلام عصبية الجنسية الجاهلية التي حرّمها الإسلام وشدّد في منعها، بعد أن ضعف العلم والدين في المسلمين بضعف اللغة العربية فيهم، حتى قام بعض الأعاجم في هذه السنين الأخيرة يدعون قومهم إلى ترجمة القرآن بلغتهم والاستغناء عن القرآن العربي. زاعما أن الإسلام دين ليس له لغة. وغلا بعض هؤلاء في بغض العربية فدعا مسلمي قومه إلى الأذان والصلاة والخطبة بلغتهم، وقد أجمع المسلمون بالعمل على إقامة هذه الشعائر الإسلامية بلغة الإسلام العربية إلى اليوم، وكان من عاقبة هذا الضعف في العلم والدين أن بعض المسلمين في بلاد الأعاجم - كجاوة، التي يقل فيها العلماء العارفون بالدين ولغته، القادرون على دفع الشبه عن القرآن - صاروا يرتدون عن الإسلام لإيضاع دعاة النصرانية خلاهم، وسؤالهم الفتنة بالتشكيك في القرآن والطعن فيه. وأين من يفهمه ويدافع عنه هناك؟ ومنهم من صار يفخر بسلفه من الوثنيين والمجوس حتى بفرعون الذي لعنه الله في جميع كتبه.

أمرنا الله تعالى أن نتدبر القرآن ونعتبر به، ونتذكر ونهتدي، وأن نعلم ما نقوله في صلاتنا من آياته وأذكاره، وأكد هذه المسائل في آيات كثيرة، والامثال لها والعمل بها لا يكون إلا

بفهم العربية الفصحى. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وجعل الله تعالى القرآن معجزاً للبشر ولا تقوم حجته في هذا عليهم إلا بفهمه، ولا يمكن فهمه إلا بفهم العربية الفصحى، فمعرفة العربية من ضروريات دين الإسلام، ندعو إليها جميع المسلمين بدعائهم إلى القرآن.

وإننا نعتقد أن المسلمين ما ضعفوا وزال ما كان لهم من الملك الواسع إلا بإعراضهم عن هداية القرآن، وأنه لا يعود إليهم بشيء مما فقدوا من العز والسيادة والكرامة إلا بالرجوع إلى هدايته، والاعتصام بحبله كما يرون ذلك مبيناً في تفسير الآيات الكريمة الدالة عليه، ولا يتم ذلك إلا بالاتفاق على إحياء لغته فالدعاء له دعاء لها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَخطفَكُمُ النَّاسُ فَيَوْنَكُمُ وَيَأْتِكُم بِضُرٍّ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿وبالشكر تدوم النعم، وكفرها مجلبة للنقم، [الأنفال: ٤٢ - ٢٦]، ولذلك أُرشدنا الله في فاتحة كتابه إلى الدعاء بأن يهديننا صراط

المتنعم عليه من الشاكرين»^(١). اهـ

ومن اجتذاب القرآن للعجم إليه وإلى لغته تفاني كثير منهم في دراسة العربية، والبحث عن أسرارها في مفرداتها وجملها، وقد بزوا في ذلك العرب، فكم تركوا من آثار حقيق أن يفخر بها، وكان هؤلاء أنفسهم يفاخرون بهذه المزية التي اختصوا بها، ويحمدون الله عليها، كما في قول الزمخشري الأعجمي: «الله أحمد على أن جعلني من علماء العربية، وجبلي على الغضب للعرب والعصبية، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز، وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم إلا الرشق باللسنة اللاعنين، والمشق بأسنة الطاعنين»^(٢).

وقد بلغ تعصب الأعاجم للعربية أنهم كانوا يموتون لأجل الحفاظ عليها كما كان ذلك من سيبويه الذي يعد شهيد هذه اللغة، ولم يكن ذلك منه لأجل لغته التي رضعها مع لبن أمه.

(١) رشيد رضا: المنار، ١/ ٢٥-٢٦.

(٢) الزمخشري: المفصل في صنعة الإعراب، ص ١٧، قدم له وبوبه: د. علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال - بيروت، ط: ٢٠٠٣ م.

-تأثر ملكة المسلمين في لغتهم العربية بسبب إهمال العناية بها:

مع ضعف العناية بهذه اللغة بسبب ما زاحمها من اللغات الأجنبية التي تسلط أهلها على الشعوب وفرضوا عليهم لغاتهم، فكانت كل دولة مستعمرة تفرض على مستعمراتها لغتها الخاصة ولا تسمح لأي لغة أخرى أن تكون فيها لغة العلم والثقافة، إلا أن كثيرا من المسلمين ظلوا متمسكين بلغة القرآن فقد حضرت مؤتمرا انعقد قبلما يناهز خمسة عقود من الآن في إحدى دول غرب إفريقيا، وكان المؤتمر خاصا بتعزيز دعوة الإسلام في تلك الدول، فلذلك كان المؤتمر خاصا بدول هذا الجزء من هذه القارة، وإنما كنا ضيوف شرف فيه، وقد أدير المؤتمر بينهم باللغة العربية لغة القرآن الكريم من غير ترجمة، فحمدت الله تعالى على هذه العناية بهذه اللغة من الشعوب المسلمة، وما ذلك إلا لأجل غيرتهم على الإسلام وحفاظهم على القرآن الذي هو عموده.

وقد ساءني أخيرا أن هذا البلد نفسه سمعت صلاة تقام من قبل أحد أئمتة فكان يقرأ الفاتحة الشريفة وما تيسر من القرآن وجميع أذكار الصلاة بلغة بلده، وعجبت من هذا الأمر كيف يتحقق ما بين هؤلاء، الذين بلغوا ذلك المبلغ في مهارتهم

العربية وإتقانهم لها وحفاظهم عليها، ولعمري ما هذه إلا شعوبية مقبلة أخذ الاستعمار يرسخها في ضعاف هذه الأمة إلى هذا الحد الخطير، ومن حيث إن هذا أمر يمس ديننا الحنيف وكتابنا العظيم رأيت عدم السكوت عنه، فإنه من الواجب على كل من بلغه أن يهب للدفاع عن الحق والذود عن حمى الإسلام، وليست هذه عصبية لأصلي العربي وإنما إن جاز أن تسمى عصبية فهي عصبية للإسلام، وإلا فالحقيقة أن هذه غير لما أخشاه وراء ذلك من استهانة الناس بهذا الأمر وسريانه فيهم، فقد علمت أن الأمة أجمعت على وجوب الحفاظ في الصلاة وتلاوة القرآن على اللغة العربية وأن لا يتلى غيرها إلا من شذ، والإجماع العملي على خلاف هذا الشذوذ.

ولنسمع حكم هذه المسألة من أحد العلماء الأفاضل الذين ولدوا وتربوا في بلاد العجم فكان أكثر الناس توسعا فيها، وهو الفخر الرازي الذي ولد ونشأ في بلاد فارس، كيف قال في قراءة الفاتحة بالفارسية، فدونك ما قاله في ذلك: «قال الشافعي: ترجمة القرآن لا تكفي في صحة الصلاة لا في حق من يحسن القراءة ولا في حق من لا يحسنها، وقال أبو حنيفة: إنها كافية في حق القادر والعاجز.

وقال أبو يوسف ومحمد: إنها كافية في حق العاجز وغير كافية في حق القادر، واعلم أن مذهب أبي حنيفة في هذه المسألة بعيد جدا، ولهذا السبب فإن الفقيه أبا الليث السمرقندي والقاضي أبا زيد الدبوسي صرحا بتركه.

لنا حجج ووجوه: الحجة الأولى: أنه عليه السلام إنما صلى بالقرآن المنزل من عند الله تعالى باللفظ العربي، وواظب عليه طول عمره، فوجب أن يجب علينا مثله، لقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، والعجب أنه احتج بأنه عليه السلام مسح على ناصيته مرة على كونه شرطاً في صحة الوضوء ولم يلتفت إلى مواظبته طول عمره على قراءة القرآن باللسان العربي.

الحجة الثانية: أن الخلفاء الراشدين صلوا بالقرآن العربي، فوجب أن يجب علينا ذلك، لقوله عليه السلام: «اَقْتَدُوا بِالَّذِينَ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ»^(١)، ولقوله عليه السلام: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ»^(٢).

(١) رواه أبو عبيدة في حديث جماعة بن الزبير العتكي (رقم: ٥٨، ص ٧٠)، وأبو الشيخ في ذكر الأقران (رقم: ٤٣٤، ص ١١٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٠٩/٩) من طريق حذيفة .

(٢) رواه أبو داود في سننه، أول كتاب السنة، باب في لزوم السنة، (رقم: ٤٦٠٧، ١٦/٧)، من طريق العرياض بن سارية، بلفظ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي» =

الحجة الثالثة: أن الرسول وجميع الصحابة ما قرأوا في الصلاة إلا هذا القرآن العربي، فوجب أن يجب علينا ذلك، لقوله عليه السلام: «سَتَقْرَأُ أُمَّتِي عَلَى نَيْفٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً»، قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»^(١).

وجه الدليل أنه عليه السلام هو وجميع أصحابه كانوا متفقين على القراءة في الصلاة بهذا القرآن العربي، فوجب أن يكون القارئ بالفارسية من أهل النار.

الحجة الرابعة: أن أهل ديار الإسلام مطبقون بالكلية على قراءة القرآن في الصلاة كما أنزل الله تعالى، فمن عدل عن هذا الطريق دخل تحت قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥].

= وَسُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّينَ الرَّاشِدِينَ، والترمذي في سننه، أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، (رقم: ٢٦٧٦، ٤/٤٤)، وقال: حسن صحيح.

(١) رواه الترمذي في جامعه، أبواب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، (رقم: ٢٦٤١، ٥/٢٦)، وقال: حَدِيثٌ مُفَسَّرٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مِثْلَ هَذَا إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

الحجة الخامسة: أن الرجل أمر بقراءة القرآن في الصلاة، ومن قرأ بالفارسية لم يقرأ القرآن، فوجب أن لا يخرج عن العهدة، إنما قولنا إنه أمر بقراءة القرآن لقوله تعالى: ﴿فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]، ولقوله ﷺ للأعرابي: «ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»^(١).

وإنما قلنا إن الكلام المرتب بالفارسية ليس بقرآن لوجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَئِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢] إلى قوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ [فصلت: ٤٤]، وكلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، وهذا يدل على أنه تعالى ما جعله قرآنا أعجميا، فيلزم أن يقال: إن كل ما كان أعجميا فهو ليس بقرآن.

الرابع: قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليك السلام، (رقم: ٦٢٥١، ٨/٥٦)، من طريق أبي هريرة.

أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨]، فهذا الكلام المنظوم بالفارسية: إما أن يقال إنه عين الكلام العربي أو مثله، أو لا عينه ولا مثله، والأول معلوم البطلان بالضرورة، والثاني باطل، إذ لو كان هذا النظم الفارسي مثلاً لذلك الكلام العربي لكان الآتي به آتياً بمثل القرآن، وذلك يوجب تكذيب الله سبحانه في قوله: لا يأتون بمثله ولما ثبت أن هذا الكلام المنظوم بالفارسية ليس عين القرآن ولا مثله ثبت أن قارئه لم يكن قارئاً للقرآن، وهو المطلوب، فثبت أن المكلف أمر بقراءة القرآن ولم يأت به، فوجب أن يبقى في العهدة.

الحجة السادسة: ما رواه ابن المنذر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا تُجْزِي صَلَاةً لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»^(١)، فنقول: هذه الكلمات المنظومة بالفارسية إما أن يقول أبو حنيفة إنها قرآن أو يقول إنها ليست بقرآن، والأول جهل عظيم وخروج عن الإجماع، وبيان من وجوه: الأول: أن أحداً من العقلاء لا يجوز في عقله ودينه أن يقول إن قول القائل: (دوستان در بهشت) قرآن. الثاني: يلزم أن يكون القادر على ترجمة القرآن آتياً بقرآن مثل الأول وذلك باطل.

(١) رواه ابن المنذر في الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (رقم: ١٢٩٩، ٩٩/٣).

الحجة السابعة: روى عبد الله بن أبي أوفى أن رجلاً قال: يا رسول الله إني لا أستطيع أن أحفظ القرآن كما يحسن في الصلاة، فقال ﷺ: «قُلْ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ» إلى آخر هذا الذكر^(١)، وجه الدليل أن الرجل لما سأله عما يجزئه في الصلاة عند العجز عن قراءة القرآن العربي أمره الرسول ﷺ بالتسبيح، وذلك يبطل قول من يقول إنه يكفي أن يقول: دوستان در بهشت.

الحجة الثامنة: يقال إن أول الإنجيل هو قوله: (بسم الاها رحمانا ومرحيانا) وهذا هو عين ترجمة بسم الله الرحمن الرحيم، فلو كانت ترجمة القرآن نفس القرآن لقاتل النصارى إن هذا القرآن إنما أخذته من عين الإنجيل، ولما لم يقل أحد هذا علمنا أن ترجمة القرآن لا تكون قرآنا.

الحجة التاسعة: أنا إذا ترجمنا قوله تعالى: ﴿فَاَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيَّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ [الكهف: ١٩] كان ترجمته: (بفرستید یکی از شما با نقره بشهر پس بنگرد که کدام طعام بهترست

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الدعاء، باب في ثواب التسبيح، (رقم: ٢٩٤١٩، ٥٦/٦)، وأحمد في مسنده، (رقم: ١٩١٣٣، ٤/٣٥٣)، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما يجزئ الأمي والأعجمي من القراءة، (رقم: ٨٣٢، ٢/١٢٤).

پاره از آن بیاورد)، ومعلوم أن هذا الكلام من جنس كلام الناس لفظا ومعنى، فوجب أن لا تجوز الصلاة به، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ صَلَاتَنَا هَذِهِ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ»^(١)، وإذا لم تنعقد الصلاة بترجمة هذه الآية فكذا بترجمة سائر الآيات، لأنه لا قائل بالفرق، وأيضا فهذه الحجة جارية في ترجمة قوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١] إلى قوله: ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٌ﴾ [القلم: ١٣]، فإن ترجمتها لا تكون شتما من جنس كلام الناس في اللفظ والمعنى، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتِ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا﴾ [البقرة: ٦١]، فإن ترجمة هذه الآية تكون من جنس كلام الناس لفظا ومعنى، وهذا بخلاف ما إذا قرأنا عين هذه الآيات بهذه الألفاظ لأنها بحسب تركيبها المعجز ونظمها البديع تمتاز عن كلام الناس، والعجب من الخصوم أنهم قالوا: إنه لو ذكر في آخر التشهد دعاء يكون من جنس كلام الناس فسدت صلاته ثم قالوا: تصح الصلاة بترجمة هذه الآيات مع أن ترجمتها عين كلام الناس لفظا ومعنى.

(١) رواه الدارمي في مسنده، كتاب الصلاة، باب النهي عن الكلام في الصلاة، (رقم: ١٥٤٣، ٢/ ٩٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، (رقم: ٥٣٧، ١/ ٣٨١)، من طريق مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ.

الحجة العاشرة: قوله عليه الصلاة والسلام: «أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ؛ كُلُّهَا شَافٍ كَافٍ»^(١)، ولو كانت ترجمة القرآن بحسب كل لغة قرآنا لكان قد أنزل القرآن على أكثر من سبعة أحرف، لأن على مذهبهم قد حصل بحسب كل لغة قرآن على حدة، وحينئذ لا يصح حصر حروف القرآن في السبعة.

الحجة الحادية عشرة: أن عند أبي حنيفة تصح الصلاة بجميع الآيات، ولا شك أنه قد حصل في التوراة آيات كثيرة مطابقة لما في القرآن من الثناء على الله ومن تعظيم أمر الآخرة وتقبيح الدنيا. فعلى قول الخصم تكون الصلاة صحيحة بقراءة الإنجيل والتوراة، وبقراءة زيد وإنسان، ولو أنه دخل الدنيا وعاش مائة سنة ولم يقرأ حرفاً من القرآن بل كان مواظباً على قراءة زيد وإنسان فإنه يلقى الله تعالى مطيعاً، ومعلوم بالضرورة أن هذا الكلام لا يليق بدين المسلمين.

(١) رواه الربيع بن حبيب في مسنده بلفظ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ؛ كُلُّهَا شَافٍ كَافٍ؛ فَأَقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ»، باب في ذكر القرآن، (رقم: ١٥، ص ٣٠)، وأحمد في مسنده، (رقم: ٢٩٦، ١/ ٤٢)، والبخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، (رقم: ٢٤١٩، ٣/ ١٢٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، (رقم: ٨١٨، ١/ ٥٦٠)، من طريق عمر بن الخطاب.

الحجة الثانية عشرة: أنه لا ترجمة للفاتحة إلا نقول الثناء لله رب العالمين ورحمان المحتاجين والقادر على يوم الدين أنت المعبود وأنت المستعان اهدنا إلى طريق أهل العرفان لا إلى طريق أهل الخذلان، وإذا ثبت أن ترجمة الفاتحة ليست إلا هذا القدر أو ما يقرب منه فمعلوم أنه لا خطبة إلا وقد حصل فيها هذا القدر فوجب أن يقال الصلاة صحيحة بقراءة جميع الخطب، ولما كان باطلا علمنا فساد هذا القول.

الحجة الثالثة عشرة: لو كان هذا جائزا لكان قد أذن رسول الله ﷺ لسلمان الفارسي في أن يقرأ القرآن بالفارسية ويصلي بها، ولكان قد أذن لصهيب في أن يقرأ بالرومية، ولبلال في أن يقرأ بالحبشية، ولو كان هذا الأمر مشروعاً لاشتهر جوازه في الخلق فإنه يعظم في أسماع أرباب اللغات بهذا الطريق، لأن ذلك يزيل عنهم إتعاب النفس في تعلم اللغة العربية، ويحصل لكل قوم فخر عظيم في أن يحصل لهم قرآن بلغتهم الخاصة، ومعلوم أن تجويزه يفضي إلى اندراس القرآن بالكلية، وذلك لا يقوله مسلم.

الحجة الرابعة عشرة: لو جازت الصلاة بالقراءة بالفارسية لما جازت بالقراءة بالعربية، وهذا جائز وذاك غير جائز، وبيان الملازمة أن الفارسي الذي لا يفهم من العربية شيئاً لم يفهم

من القرآن شيئاً البتة، أما إذا قرأ القرآن بالفارسية فهم المعنى وأحاط بالمقصود وعرف ما فيه من الثناء على الله ومن الترغيب في الآخرة والتنفير عن الدنيا، ومعلوم أن المقصد الأقصى من إقامة الصلوات حصول هذه المعاني، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، فثبت أن قراءة الترجمة تفيد هذه الفوائد العظيمة، وقراءة القرآن باللفظ العربي تمنع من حصول هذه الفوائد، فلو كانت القراءة بالفارسية قائمة مقام القراءة بالعربية في الصحة ثم إن القراءة بالفارسية تفيد هذه الفوائد العظيمة والقراءة بالعربية مانعة منها لوجب أن تكون القراءة بالعربية محرمة، وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أن القراءة بالفارسية غير جائزة.

الحجة الخامسة عشرة: المقتضى لبقاء الأمر بالصلاة قائم، والفارق ظاهر، أما المقتضى فلأن التكليف كان ثابتاً، والأصل في الثابت البقاء، وأما الفارق فهو أن القرآن العربي كما أنه يطلب قراءة لمعناه كذلك تطلب قراءته لأجل لفظه، وذلك من وجهين: الأول: أن الإعجاز في فصاحته، وفصاحته في لفظه.

والثاني: أن توقيف صحة الصلاة على قراءة لفظه يوجب

حفظ تلك الألفاظ، وكثرة الحفظ من الخلق العظيم يوجب بقاءه على وجه الدهر مصونا عن التحريف، وذلك يوجب تحقيق ما وعد الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، أما إذا قلنا إنه لا يتوقف صحة الصلاة على قراءة هذا النظم العربي فإنه يختل هذا المقصود، فثبت أن المقتضى قائم والفارق ظاهر.

واحتج المخالف على صحة مذهبه بأنه أمر بقراءة القرآن، وقراءة الترجمة قراءة القرآن، ويدل عليه وجوه: الأول: روي أن عبد الله بن مسعود كان يعلم رجلا القرآن فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۖ طَعَامُ الْأَيْمِ﴾ [الدخان: ٣٤ - ٤٤]، وكان الرجل عجميا فكان يقول: طعام اليتيم: فقال: قل طعام الفاجر، ثم قال عبد الله إنه ليس الخطأ في القرآن أن يقرأ مكان العليم الحكيم بل أن يضع آية الرحمة مكان آية العذاب.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، فأخبر أن القرآن في زبر الأولين، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۖ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ٨١ - ١٩]، ثم أجمعنا على أنه ما كان القرآن في زبر الأولين بهذا اللفظ لكن كان بالعبرانية والسريانية.

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٩]، ثم إن العجم لا يفهمون اللفظ العربي إلا إذا ذكر تلك المعاني لهم بلسانهم، ثم إنه تعالى سماه قرآنا، فثبت أن هذا المنظوم بالفارسية قرآن.

والجواب عن الأول أن نقول: إن أحوال هؤلاء عجيبة جدا، فإن ابن مسعود نقل عنه أنه كان يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، ولم ينقل عن أحد من الصحابة المبالغة في نصره هذا المذهب كما نقل عن ابن مسعود، ثم إن الحنفية لا تلتفت إلى هذا، بل نقول: إن القائل به شاك في دينه، والشاك لا يكون مؤمنا، فإن كان قول ابن مسعود حجة فلم لم يقبلوا قوله في تلك المسألة؟ وإن لم يكن حجة فلم عول عليه في هذه المسألة؟

ولعمري؛ هذه المناقضات عجيبة، وأيضا فقد نقل عن ابن مسعود حذف المعوذتين وحذف الفاتحة عن القرآن ويجب علينا إحسان الظن به، وأن نقول: إنه رجع عن هذه المذاهب، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَئِنَّ زَيْرَ الْأُولَىٰ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، فالمعنى أن هذه القصص موجودة في زبر الأولين، وقوله تعالى: ﴿لَأُنذِرَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، فالمعنى لأنذرکم معناه، وهذا القدر القليل من المجاز يجوز تحمله لأجل الدلائل القاهرة القاطعة التي

ذكرناها»^(١). اهـ

قلت: نزه ابن مسعود رضي الله عنه صاحب رسول الله صلی الله علیه وسلم من أمثال هذه الأقوال الشاذة، وإنما الرواية التي غلبت على الأمة بدون تحييص بين الثابت وغيره منها هي التي حرفت الحقيقة حتى شاعت في الناس هذه الأقوال المنكرة، وعزيت إلى كبار أصحاب رسول الله صلی الله علیه وسلم الذين كانوا للدين حماة وللناس قادة وأئمة، وبالجملة؛ فإن قارئ القرآن بغير لغته التي أنزله الله بها هو غير قارئ له، فمن قرأ الفاتحة في الصلاة أو غيرها بغير اللغة العربية التي أنزله الله تعالى بها لا تعد تلك قراءة للقرآن مهما حاول القارئ أن يحافظ على جوهرها ومضمونها، وقد أنكر العلماء أيما إنكار هذه البدع التي لزت في الأمة بسبب فقدان الوازع الديني الناشئ عن عدم رسوخ العقيدة الصحيحة في هذه الأمة، وقد كان للغزو الأجنبي الفكري والسياسي أثر بالغ على ذلك، فقد كرهوا إليهم اللغة العربية وحببوا إليهم العصبية القومية الضيقة؛ التي مزقت هذه الأمة كل ممزق، فقد انحل بذلك عقدها، ولست أقول ذلك عصبية للعرب، فإن العصبية أيا كانت ممقوتة، وما كانت العصبية للقومية العربية إلا ردة فعل

(١) الفخر الرازي: التفسير الكبير، ١/ ١٨٣-١٨٧، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٣: ١٤٢٠هـ.

لما كان عند الآخرين، وقد ولدت القومية العربية في كنف غير المسلمين الذين حملهم الحقد في مواجهة الذين نبذوهم إلى إنشاء هذه القومية.

وقد كان حرياً بهم أن يدعوا التنادي بالقوميات وأن يرجعوا إلى الأصل الذي جمعهم عليه القرآن، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر، واتباع النبي العربي الذي ختم الله به النبوات وأتم به النعمة على عباده، فاجتمعوا بعد الشتات وتوادوا بعد الشنآن، وقد طهرهم الله تعالى من رجس العصبية فاجتمع في ظل الإسلام العربي والأعجمي من غير تمييز ومن غير استخفاف بالغير، فإن الجميع إخوة في الله، وقد جمعهم الأخوة الإنسانية، ولم يترك الله لهم مجالاً للعصبية الضيقة والدعوات المفرقة، فبين أن المزية للتقوى لا للعنصر، فأبوهب وأبو جهل وأمثالهما هم أعداء للمسلمين جميعاً من العرب وكذلك غيرهم، ولم تقرهم عروبتهم ممن آمن من العرب.

بل فضل الله تعالى سلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي وغيرهم من مؤمني الأعجم على من لم يؤمن من العرب وعلى كل من قصر في إيمانه، بل حتى على من تأخر عن الإيمان فترة إلى أن هداه الله إليه، فقد أخرج الحاكم وغيره عن جرير بن

حازم قال: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يُحَدِّثُ، يَقُولُ: «حَضَرَ أَنَسُ بَابَ عُمَرَ، وَفِيهِمْ: سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَالشُّيُوخُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَخَرَجَ إِذْنُهُ، فَجَعَلَ يَأْذُنُ لِأَهْلِ بَدْرِ لِصَهْبٍ وَبِلَالٍ وَأَهْلِ بَدْرِ. قَالَ: وَكَانَ وَاللَّهِ بَدْرِيًّا، وَكَانَ يُحِبُّهُمْ، وَكَانَ قَدْ أَوْصَى بِهِ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ أَنَّهُ يُؤْذَنُ لِهَذِهِ الْعَبِيدِ وَنَحْنُ جُلُوسٌ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْنَا، فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَيَا لَهُ مِنْ رَجُلٍ، مَا كَانَ أَعْقَلَهُ: أَيُّهَا الْقَوْمُ، إِنِّي وَاللَّهِ قَدْ أَرَى الَّذِي فِي وُجُوهِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ غَضَابًا فَاغْضَبُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، دُعِيَ الْقَوْمُ وَدُعِيتُمْ، فَاسْرِعُوا وَأَبْطَأْتُمْ، أَمَا وَاللَّهِ لَمَا سَبَقُوكُمْ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ فِيمَا تَرَوْنَ أَشَدَّ عَلَيْكُمْ فَوْتًا مِنْ تَأْيِيكُمُ عَلَى الَّذِينَ تَنَافَسُونَ عَلَيْكُمْ. قَالَ: إِنَّ هَذَا الْقَوْمَ قَدْ سَبَقُوكُمْ بِمَا تَرَوْنَ، وَلَا سَبِيلَ لَكُمْ وَاللَّهِ إِلَى مَا سَبَقُوكُمْ إِلَيْهِ، فَانْظُرُوا هَذَا الْجِهَادَ فَالْزَمُوهُ، عَسَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْزُقَكُمْ الْجِهَادَ وَالشَّهَادَةَ، ثُمَّ نَقَضَ ثَوْبَهُ، فَقَامَ فَلَحِقَ بِالشَّامِ. قَالَ الْحَسَنُ: فَصَدَقَ اللَّهُ، لَا يَجْعَلُ اللَّهُ عَبْدًا اسْرَعَ إِلَيْهِ كَعَبْدٍ أَبْطَأَ عَنْهُ»^(١).

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة، (رقم: ٥٢٦٣، ٣/ ٢٨٢)، والطبراني في الكبير، (رقم: ٦٠٣٨، ٦/ ٢١١)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة، (٣/ ١٣٢٥، رقم: ٣٣٧)، وابن المبارك في الجهاد، (رقم: ١٠٠، ص ٨٥).

وقد بين الله تعالى أن تفاوت الناس في الأنساب لا يعني تفاوتهم في المقامات والأقدار، وإنما تفاوتهم بقدر إحرازهم من تقوى الله تعالى وعملهم مقتضاها، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقد كان الناس منسجمين مع الوحدة الإسلامية على اختلاف شعوبهم وتباين أنسابهم، إلى أن دخلت فيهم النعرات الجاهلية التي ابتدعها وأنشأها أهل الكفر، فالقومية العربية ولدت في الكلية البروتستانتية بلبنان على أيدي نصارى العرب بعدما خطط لها الغرب، في عام (١٢٦٣هـ - ١٨٤٧م)، ووُلدت القومية الطورانية في تركيا على أيدي يهود الدونما بعد ذلك بعام واحد، وهو يدل على أن التخطيط لميلاد القوميتين جميعاً كان واحداً^(١)، وكان ذلك سبباً لمحاولة تزييف القرآن بترجمته إلى اللغات الأخرى، وكذلك ترجمة الشعائر الدينية كالأذان، كما سبق نقل كلام صاحب المنار في ذلك.

(١) ينظر؛ القرضاوي: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، ص ١٤٧ - ١٦٠، مؤسسة الرسالة، ط: ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

هذا؛ وقد ثبتت الأحاديث الدالة على ضرورة قراءة الفاتحة الشريفة لكل مصل إماما كان أو مأموما أو منفردا، كحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾» [الفاتحة: ٢]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾» [الفاتحة: ٣]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَتَنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾» [الفاتحة: ٤]، قَالَ: حَمِدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾» [الفاتحة: ٥]، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾» [١] صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿١﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧]، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(١)، وقد جاء عند الجماعة ما عدا البخاري وابن ماجه بلفظ: «كُلُّ صَلَاةٍ لَا

(١) رواه الربيع بن حبيب في مسنده، رقم: ٢٢٧، ص ١١١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، (رقم: ٣٩٥، ٢٩٦/١)، وأحمد في مسنده، (رقم: ٧٨٢٣، ٢/٢٨٥)، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب من ترك القراءة في صلاته، (رقم: ٨٢١، ٢/١١٣)، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، سورة الفاتحة، (رقم: ٢٩٥٣، ٥/٢٠١)، والنسائي في المجتبى من السنن، كتاب الافتتاح، باب ترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب، (رقم: ٩٠٩، ٢/١٣٥).

يُقْرَأُ فِيهَا بِأَمْرِ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ»^(١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمره أن يخرج فينادي: «لَا صَلَاةَ إِلَّا بِقِرَاءَةِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ»^(٢)، وفي رواية عن عباد بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»^(٣)، ونفي الصلاة يعني نفي وجود حقيقتها، وهو يعني عدم صحتها، ولا

(١) رواه الربيع في مسنده، كتاب الصلاة ووجوبها، باب في القراءة في الصلاة، (رقم: ٢٢٥، ص ١١١) من طريق أنس بن مالك، ومن طريق أبي هريرة: رواه أحمد في مسنده، (رقم: ٧٨٨٨، ٢/ ٢٩٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، (رقم: ٣٩٥، ١/ ٢٩٦)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب فضائل القرآن، باب فضل فاتحة الكتاب، (رقم: ٧٩٥٩، ٧/ ٢٥٦)، والترمذي في سننه، أبواب الصلاة، باب ما جاء في ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر بالقراءة، (رقم: ٣١٢، ٢/ ١٢١)، وابن ماجه في سننه، أبواب إقامة الصلاة، باب القراءة خلف الإمام، (رقم: ٨٤٠، ٢/ ٢٦).

(٢) رواه أحمد في مسنده، (رقم: ٩٥٢٥، ٢/ ٤٢٨)، ورواه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب من ترك القراءة في صلاته، (رقم: ٨٢٠، ٢/ ١١٣).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت، (رقم: ٧٥٦، ١/ ١٥١)، والترمذي في سننه، أبواب الصلاة، باب ما جاء أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، (رقم: ٢٤٧، ٢/ ٢٥)، والنسائي في المجتبى من السنن، كتاب الافتتاح، باب إيجاب قراءة فاتحة الكتاب في الصلاة، (رقم: ٩١٠، ٢/ ١٣٧)، وابن ماجه في سننه، أبواب إقامة الصلاة، باب القراءة خلف الإمام، (رقم: ٨٣٧، ٢/ ٢٤).

وجه لما قاله بعض العلماء بأن المراد بالنفي هنا نفي كمالها، أو بعض صفاتها.

قال الحافظ ابن حجر: «قال عياض: قيل يحمل على نفي الذات وصفاتها، لكن الذات غير متفية فيخص بدليل خارج، ونوزع في تسليم عدم نفي الذات على الإطلاق؛ لأنه إن ادعى أن المراد بالصلاة معناها اللغوي فغير مسلم؛ لأن ألفاظ الشارع محمولة على عرفه، لأنه المحتاج إليه فيه لكونه بعث لبيان الشرعيات لا لبيان موضوعات اللغة، وإذا كان المنفي الصلاة الشرعية استقام دعوى نفي الذات، فعلى هذا لا يحتاج إلى إضمار الإجزاء ولا الكمال؛ لأنه يؤدي إلى الإجمال كما نقل عن القاضي أبي بكر وغيره، حتى مال إلى التوقف؛ لأن نفي الكمال يشعر بحصول الإجزاء فلو قدر الإجزاء متفياً لأجل العموم قدر ثابتاً لأجل إشعار نفي الكمال بثبوت، فيتناقض، ولا سبيل إلى إضمارهما معاً لأن الإضمار إنما احتيج إليه للضرورة، وهي مندفة بإضمار فرد فلا حاجة إلى أكثر منه، ودعوى إضمار أحدهما ليست بأولى من الآخر قاله ابن دقيق العيد، وفي هذا الأخير نظر؛ لأننا إن سلمنا تعذر الحمل على الحقيقة، فالحمل على أقرب المجازين إلى الحقيقة أولى من الحمل على أبعدهما، ونفي الإجزاء أقرب إلى نفي الحقيقة، وهو السابق إلى الفهم، ولأنه

يستلزم نفي الكمال من غير عكس، فيكون أولى، ويؤيده رواية الإسماعيلي من طريق العباس بن الوليد النرسي أحد شيوخ البخاري عن سفيان بهذا الإسناد بلفظ: «لَا تُجْزَى صَلَاةٌ لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»، وتابعه على ذلك زياد بن أيوب أحد الأثبات، أخرجه الدارقطني، وله شاهد من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً بهذا اللفظ أخرجه بن خزيمة وابن حبان وغيرهما ولأحمد من طريق عبد الله بن سودة القشيري عن رجل عن أبيه مرفوعاً «لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ»^(١). اهـ

والروايات في ذلك كثيرة، وذلك يعني ضرورة قراءتها كما بينته في جواهر التفسير^(٢)، ولا بد من أن تكون القراءة بنصها القرآني المنزل، فمن قرأها مترجمة إلى أي لغة أخرى فهو لم يقرأها بهذا الوصف، ولا تصح صلاته على الصحيح.

(١) ابن حجر: فتح الباري، ٢/ ٢٤١-٢٤٢، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت، ط: ١٣٧٩هـ.

(٢) ينظر للمؤلف؛ جواهر التفسير، ١/ ٣٧٠-٣٩٨، الكلمة الطيبة - سلطنة عمان، ط ١: ١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٤م.

-ضرورة تعلم القرآن بلغته لأجل صحة تلاوته:

لا ريب أن هذا يعني أن كل مسلم مطالب أن يتعلم القرآن بنصه كما أنزله الله تعالى، ولا يكفي أن يقرأه مترجماً إلى أي لغة كانت، لأن ذلك يفقده حقيقته القرآنية، فمن أقسم أنه قرأ القرآن وهو لم يقرأه بنصه المجمع عليه فهو حاث في يمينه، ولهذا يبادر المسلمون كلهم إلى تعلم اللغة العربية لأجل المحافظة على القرآن الكريم، ومنها إلى المحافظة على دينهم الإسلام، لأن الإسلام لا يفهمه حق الفهم إلا من فهم القرآن، ولا يفهم القرآن من لم يفقه لغته التي أنزله الله تعالى بها.

وقد تسابقت الهمم في ذلك فتنافست الشعوب في دراسة العربية لأجل الفهم الصحيح للقرآن، ومن أحرز قصب السبق في ذلك إخواننا مسلمو غرب إفريقيا، فعلى الرغم من الاستعمار الفرنسي القاسي الذي حاول مسخ هوية شعوب هذا الجزء من هذه القارة المسلمة إلا أنه فشل في ذلك، وبقيت الشعوب محافظة على إسلامها، وعلى القرآن الكريم ولغته العربية، وقد حضرت مؤتمراً قبلما يناهز خمسة عقود من السنين في إحدى دول هذه المنطقة، وكان المؤتمر معنياً بتنسيق الجهود بين جمعيات الدعوة الإسلامية في دول هذه المنطقة جميعاً، وقد حضرت المؤتمر

كما حضره غيري من العرب ضيوفا عليه من غير أن تكون لنا مشاركة إلا في كلمات ألقيناها، وإنما المشاركة العملية كانت بين الأفارقة أنفسهم من شعوب هذه الدول، لأنهم هم المعنيون بهذا الأمر وقد كانت جميع كلماتهم ومناقشاتهم في جلسات المؤتمر باللغة العربية لغة القرآن الكريم من غير احتياج إلى ترجمة لأن الكل كانوا يفقهونها، وهذه الشعوب هي ثرية بعلماء أفذاذ في الشريعة الإسلامية واللغة العربية، وقد بلغوا من الأدب العربي نظمه ونثره مبلغا راقيا، وهذا القطر الذي انعقد فيه هذا المؤتمر لم تكن خطواته في التباري في ذلك أقل من غيره، بل لعله كان الأسبق في ذلك.

وقد دهشت عندما سمعت إماما يؤم المصلين في هذه الدولة ويقرأ الفاتحة الشريفة وما معها من القرآن وتكابير الانتقال وغيرها من الأذكار بما في ذلك إقامة الصلاة باللغة المحلية، وقد عجبت من ذلك أيما عجب، وحسب ما علمت فإن شعوب هذه المنطقة إنما تتبع المذهب المالكي، وقد نص في هذا المذهب على ضرورة الصلاة بالعربية، فقد ذكر الخرشي وغيره من شراح مختصر خليل^(١) في تكبيرة الإحرام اثني عشر شرطا أولها أن تكون

(١) ينظر؛ الخرشي: شرح مختصر خليل، ١/ ٢٦٥، دار الفكر للطباعة - بيروت،
والمواق الغرناطي: التاج والإكليل لمختصر خليل، ٢/ ٢٠٦، دار الكتب =

بالعربية، لأن النبي ﷺ قال: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»^(١)، ولم يصل إلا بالعربية، وذكر القاضي عبد الوهاب البغدادي منهم في كتابه الإشراف عن الشافعي أن من شرط صحة الصلاة أن تكون بالعربية «فوجب أن لا تصح إذا أتى به بغير العربية كالقراءة»^(٢)، وقد شدد الإمام مالك نفسه حتى في الرقى بغير اللغة العربية فقال: «وما يدريك لعله كفر؟! فكل ما حاك في صدر الإنسان من هذا وما أشبهه فيتعين تجنبه»^(٣).

وقد رأيت من الضرورة التنبيه على ذلك، لخطورة هذا الأمر لأنه يترتب عليه ما بعده، وليس هذا تزهيدا لهم في لغتهم الخاصة ولا تقليلا من قدر انتمائهم إلى أصولهم النسيية ولا دعوة

= العلمية- بيروت، ط ١: ١٤١٦هـ / ١٩٩٤م، والزرقاني: شرح الزرقاني على مختصر خليل، ٣/ ٢٤، ضبطه وصححه وخرج آياته: عبد السلام محمد أمين، دار الكتب العلمية- بيروت، ط ١: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ومحمد عlish: منح الجليل شرح مختصر خليل، ١/ ٢٤٣، دار الفكر - بيروت، وغيرها.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر، (رقم: ٦٣١، ١/ ١٢٨) من طريق مالك بن الحويرث.

(٢) القاضي عبد الوهاب: الإشراف على نكت مسائل الخلاف، ١/ ٢٢٨، قارن بين نسخه وخرج أحاديثه وقدم له: الحبيب بن طاهر، دار ابن حزم- بيروت، ط ١: ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

(٣) ابن الحاج: المدخل، ٤/ ٩١، دار التراث- القاهرة.

إلى التخلي عن لغتهم، وعن خصائص شعبهم، فإن هذه الأمور كلها لا يمكن الاعتراض عليها، ولكن على أن لا يكون ذلك على حساب دينهم الحنيف، وعلى حساب القرآن المنزل من عند الله تعالى، بلغته الخاصة، وقد ساءني ذلك كثيرا من حيث إني لم أجد من قام بإنكار ذلك عليهم - وإن كنت أعلم أن جميع علمائهم الغيورين على دينهم ينكرون هذا الأمر بشدة - رأيت ضرورة التنبيه على هذا الأمر، فانتهزت هذه الفرصة لإعداد هذه الرسالة مع تراحم الأعمال وعدم إسعاف الحالة الصحية للقيام بذلك، إلا أن هذا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الواجبين على هذه الأمة كما قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، على أنه سبحانه جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب الترابط وتولي هذه الأمة بعضها بعضا في قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، بل جعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المدلول

عليهما بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر قريني الإيمان والعمل الصالح في كون ذلك جميعاً من أسباب النجاة من الخسران، وأنزل في ذلك سورة بأسرها، هي قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿[العصر: ١ - ٣].

لهذا أهيب بجميع المؤمنين هنالك أن يتقوا هذا الأمر، وأن يتواصوا بتركه، وأن يحض بعضهم بعضاً بذلك، فما كان لهم أن يسكتوا عن هذا الأمر الخطير، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(١)، وأرجو عدم الاستهانة بهذا الأمر، إذ ليس هو إلا تنفيذاً لمؤامرة المستعمر البغيض من أجل ترسيخ وجوده على هذه التربة الطهور، فهو وإن تحلى بقوته وعتاده فإنه يبقى نافذاً أمره في خططه ومؤامراته، وأهم ما يسعى إليه هو تمزيق هذه الأمة إلى شيع وأحزاب، والعياذ بالله.

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، (رقم: ٤٩، ١/٦٩)، من طريق أبي سعيد الخدري.

-وحدة الأمة الإسلامية أمر ضروري دل عليه القرآن:

كم نزل في القرآن الكريم ما يدعو إلى الوحدة ويحذر من الفرقة، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿[آل عمران: ٢١٠]

-[١٠٣]، ولا ريب أن وحدة الأمة في عباداتها هي أهم وحدة؛ تجمع شتاتها وتقرب بعيدها وتؤلف نافرها، فالقرآن دل على أن العبادة وإن كانت صلة بين العبد والرب سبحانه وأن كل أحد مطالب بنفسه أن يحرص على أداء العبادات المشروعة، ولكن الله تعالى جعل في كل عبادة منها صلة بين قلوب العابدين وألفة بين جميع فئاتهم، فهي تربي الكل على الخضوع لله وحده، وعلى عدم التأثير بالنعرات المفرقة والنزعات المشتتة، وحسبك أن الله علمنا أن نقول في صلواتنا وغيرها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] بصيغة جماعية، لتألف القلوب ويجتمع الشمل، ولتكون هذه العبادة سببا لوحدة شعورية لا تبقي للفرقة مجالا، ولهذا شرعت الصلاة في الجماعات لأجل الحرص على الاندماج التام بين المصلين، ولا يخفى أن اللغة نفسها رباط كما أن الفكر

رباط لأنها الجسر الذي يعبر عليه الفكر، وبالنظر إلى هذه الأمة فإن أهم ما يصل بينها من اللغات اللغة العربية؛ التي خاطبها الله تعالى بها فشرفها بخطابه، ومن عليها بالتححرر من كل عبودية إلا عبوديتها لله، وأمرها أن تخاطبه بها في أهم عبادة وهي الصلاة التي يمثل فيها العبد بين يدي الله تعالى، ويردد بين يديه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، كما دلت عليه الأحاديث التي سبق ذكر بعضها، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ثم إن هذه الشعوب المتفرقة في أمة الإسلام لا بد لها من لغة تكون وسيلة التخاطب بينها والتفاهم في قضاياها، وأي لغة أحق بذلك من هذه اللغة، ونجد لأجل ذلك العجم يحرصون عليها أكثر مما يحرصون على لغاتهم التي نشأوا عليها ورضعوها مع ألبان أمهاتهم، وقد عد الأستاذ الرافعي ذلك من معجزة القرآن الذي نزل بها، وقال في ذلك: «وحسبه معجزة ما تقول فيه من صفة الجنسية العربية التي جعل الأمم أحجاراً في بنائها والدهر على تقادمه كأنه أحد أبنائها، وأقام منها معضلة سياسية، في الأرض وضعها ونقدها، وفي السماء حلها وعقدها، وشدها المسلمين فهم إذا ائتلفوا انضموا كالبنيان المرصوص، وإذا تفرقوا

سطعوا في تيجان الممالك كالفصوص، وما إن يزالوا في التاريخ مرة أصوله، ومرة فصوله، وإن لم يقوموا أحياناً بالدين، قام بهم هذا الدين إلى حين، وكيف وقد جمعهم الكتاب الذي أنزل من السماء فكان مثال آدابها، وانتشر في الأرض فكان خلعة شبابها، ودعا إليه الناس على اختلافهم فكأنما كل أمة تدعى إلى كتابها.

ونحن فقد نعلم أن هذه المعجزة ليست إلى اللغة في مردها من الفائدة، فإنما هي ترمي إلى وحدة سياسية تكون كالنبض لقلب هذا العالم»^(١). اهـ

هذا؛ وأرجو أن أكون بهذا قد أديت ما فرضه الله علي من تغيير المنكر والدعوة إلى المعروف، وإلى الله قصدي وعليه توكلي وإليه إنابتي، وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبي العربي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

أحمد بن حمد الخليلي

٨ صفر ١٤٤٧ هـ

(١) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ٢/٦٦، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١: ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فهرس المحتويات

آية القرآن في إعجازه بدأ ظهورها بتحدي العرب	٧
أتاهم القرآن الكريم بما لم يكونوا يتصورونه من الإيمان باليوم الآخر ...	٩
كان العرب أول من تحداه القرآن	١٠
تعذر بقاء روح القرآن في ترجماته إلى غير لغته	١٧
تأثر ملكة المسلمين في لغتهم العربية بسبب إهمال العناية بها	٢٤
ضرورة تعلم القرآن بلغته لأجل صحة تلاوته	٤٥
وحدة الأمة الإسلامية أمر ضروري دل عليه القرآن	٥٠